شوقى ضيف . . العالم الموسوعى

أ.د. أحمد هيكل

وزير الثقافة السابق

الزملاء الأعزاء، أساتذة كلية الآداب بجامعة القاهرة، وأساتذة كليات الآداب بالجامعات المصرية العزيزة، الزملاء الأعزاء. الإخوة الكرام أعضاء المجمع وممثليه، الإخوة الأحباب حضور هذا الحفل الكريم:

لاشك أن أى إنسان يشرفه أن يسهم فى هذا الحفل حضوراً أو حديثاً أو استماعا، فمحور هذا الحفل رمز جليل من رموز مصر والأمة العربية والإسلامية، رمز مشرف يوشك أن يكون ظاهرة متفردة: الأستاذ الدكتور شوقى ضيف محور هذا الاحتفال وموضوع هذا التكريم، أقول: إنه ظاهرة متفردة على المستوى العلمى، وعلى المستوى الجامعى والأكاديمى، وعلى المستوى المجمعى، وعلى المستوى الثقافى والفكرى، وعلى المستوى الأدبى والإبداعى، وعلى المستوى الخلقى والإنسانى.

ويطول الحديث إذا تحدثنا عن كل مستوى من هذه المستويات، لكنى بكل الصدق واليقين والإعزاز أقول إن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف ذلك كله وأكثر منه. عرفته منذ أواخر الأربعينيات وأنا لا أزال طالبا. كنا نقرأ فى مجلة الثقافة ، نتتبع إنجازاته العلمية الأولى فى رسالتى الماجستير والدكتوراه. ويلفت النظر فيه هذه الروح الجادة وهذا الإخلاص للعلم والأدب، مع خلق رفيع لا يكاد يتمثل فى كثيرين من أمثال الدكتور شوقى ضيف.

فى هذه السنوات المبكرة ظهر كتاب فى علم النفس الأدبى للأستاذ المرحوم حامد عبد القادر، وكتب عنه الفتى الأديب الشاب الجامعى شوقى ضيف مقالا نقديا فى مجلة الثقافة، ومن باب المزاحمة من الشباب ومحاولة إثبات الذات ومحاولة المناكفة كما نقول كتبت ردا على الدكتور شوقى ضيف فى مجلة الثقافة أظن سنة ١٩٤٩ أو خمسين على الأكثر، وظننت أن هذا الرجل سيغضب أو يستاء، فإذا هو فى حبه وصفاء نفسه ورحابة صدره وتعامله فى حنو. وكلما التقيت به وجدته الأستاذ والمعلم والأب الروحى صاحب الخلق الرفيع والنفس الرحبة والعطف البالغ.

وأتيح لنا أن نسافر فى بعثة إلى أسبانيا أنا والزميل الدكتور محمود مكى وآخرون، وهناك أعوزتنى بعض المخطوطات وبعض المصادر والمراجع، وكانت نادرة حينذاك فى الخمسينيات، فأشار علىّ صديقى وزميلى الدكتور محمود على مكى بطوق النجاة وقال لى: لن يسعفك إلا الدكتور شوقى ضيف، قلت له: إننى كتبت مقالا أعارضه فيه وأنقد مقالا له فى مجلة الثقافة، فقال: لا عليك جرِّبْ، كتبت رسالة للدكتور شوقى ضيف أرجوه أن يرسل لى بضع صفحات من مخطوطة ما فأرسل إلى المخطوطة كلها مصورة وأشياء أخرى لم أطلبها، وظل على صلته بى يمدنى بما أحتاج دون أن أكون متشرفا بالتلمذة عليه فى كلية الآداب كالدكتور مكى، ولكنها الإنسانية الرفيعة والأبوة العالية والروح الحانية التى غمرنى بها منذ ذلك التاريخ منذ أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، وظلت الصلة أسعد بها وأغترف منها عواطف كريمة ومحبة حميمة وأبوة حانية من يومها وإلى اليوم.

أرى فى شوقى ضيف هذه الإنسانية العالية والأبوة الحانية وهذه الروح التى قلما وجدتها فى آخرين، وأستطيع أن أتحدث عن هذه الروح وهذه الإنسانية ساعات وساعات، لكنى أريد أن أقول كلمات عن شوقى ضيف الظاهرة.

تعودنا فى الجامعة أن نمضى على التخصص الدقيق؛ من يعمل فى حقل النحو قد يكون أديبا لا يبيح له المجتمع الأكاديمى أن يخوض فى الأدب أو فى النقد أو فى أشياء غير النحو، ومن يعمل فى ميدان الأدب قد لا يسمح لنفسه أن يخوض فى غير الأدب وما قد يتصل به من نقد أو تعليق أو مقارنات أو غير ذلك، ومن يعمل فى الدراسات الإسلامية تفسيرا أو حديثا أو علوم قرآن قد لا يسمح لنفسه وقد لا يسمح له زملاؤه أن يخوض فى النقد أو الأدب المقارن أو فى البلاغة وما إلى ذلك. شوقى ضيف حطَّم هذه القاعدة التخصصية التى نلجأ إليها كثيرا فرارا من التعب ونكوصا عن خوض المعارك المتعددة واكتفاءا بشعار التخصص الدقيق. شوقى ضيف حطم قاعدة التخصص الدقيق. فكان أشبه بالفنان الشامل الذى يمثل ويخرج ويؤلف ويرقص باليه ويعزف موسيقى ويرسم فنا تشكيليا. شوقى ضيف– مؤلف فى تاريخ الأدب العربى من الجاهلية إلى العصر الحديث. شوقى ضيف كتب فى النقد ولعله قريب من تاريخ الأدب، لكنه كتب فى البلاغة، ولعل البلاغة قريبة من النقد والأدب، لكنه كتب فى اللغة، وكتب فى النحو ومدارسه، ونقول اللغة والنحو لهما قرابة من الأدب وعلوم العربية، لكنه يكتب فى التفسير وفى علوم القرآن.

وهكذا لا يوجد فرع من فروع اللغة العربية والدراسات الإسلامية إلا وقد اقتحمه شوقى ضيف اقتحام العالم المتخصص فى هذا الفرع أو ذلك. ليس شوقى ضيف عالما موسوعيا بمعنى الأخذ من كل فن بطرف، ولكنه عالم موسوعى متخصص فى كل فرع ومتخصص فى كل الفروع وكاتب على أعلى مستوى فى كل هذه الفروع. وهذه الظاهرة لا علم لى بمثلها، هو مع النحويين نحوى متفرد ومجدد يكتب نظريات فى التجديد، ويكتب فى التفسير، ويحقق ابن مضاء القرطبى، وهو فى تاريخ الأدب يكتب تاريخاً وشخصيات ويكتب فنوناً، ويكتب فى البلاغة، ويكتب فى النقد، ويكتب فى مناهج البحث الأدبى. وهو بين المؤرخين على أعلى مستوى، وهو بين النقاد على أرفع مستوى، وبين اللغويين لغوى على أعظم مستوى، وبين الكاتبين فى علوم القرآن كاتب على أعلى مستوى، وهو محقق من طراز فريد حقق الكثير لا من المخطوطات المشرقية فقط وإنما تجاوزها إلى المخطوطات الأندلسية مثل كتاب المغرب لابن سعيد الأندلسى، وأثار ونحن فى إسبانيا، والدكتور مكى يذكر هذا، حنقا وضيقا من بعض المستشرقين، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتقصوا من علمه شيئا بل أكبروه وأجلوه، لأنه فعل ما لم يفعلوه.

شوقى ضيف ظاهرة مصرية، شوقى ضيف متفرد بالعبقرية، إنه فخر ومجد للجيل الثانى بعد جيل الرواد، الجيل الأول كان طه حسين وأحمد أمين والعبادى والشيخ الخولى، والجيل الثانى يتصدره شوقى ضيف، وفى كثير من مناقبه يتقدم أفراداً من الجيل الأول كهذه الموسوعية التخصصية، وعهدنا بالموسوعية أنها الأخذ من كل فن بطرف – شوقى ضيف موسوعى متخصص فى نفس الوقت وهو ظاهرة فريدة لا أظن أنها تكرر كثيراً، وهو فى رأيى مَعْلَمٌ من معالم مصر والأمة العربية.

وهو ممن تشرف به الأمة العربية والإسلامية، وما من بلد عربى سافرت إليه إلا وجدت فيه تلاميذ من عشاق شوقى ضيف الذين يجلونه ويقبلون يده من قرب أو من بعد، وأنا واحد من هؤلاء الذين يسعدون ويشرفون بتقبيل يده كلما التقيت به، أطال الله عمره وشرف به أمتنا أكثر وأكثر.

والسلام عليكم ورحمة الله.

أ.د. أحمد هيكل